الافتتـــاحـــيـــــــة

بقلم رئيس التحرير

مكتبة قصر عابدين..هل من دارس فارس

يهتك سرها ويفض مغاليقها ويميط اللثام عنها؟!

يطلق الثقاة على هذه المكتبة صفة المكتبة الخفية أو المكتبة المحجوبة حيث أسدل الستار عليها وغيبها النسيان وأسدل عليها ستار الاهمال عمداً مع مطلع تسعينات القرن الفارط العشرين.

لقد شاء الخديوي إسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي (المولود في ٣١ ديسمر ١٨٣٠م والمتوفى في ٢ مارس ١٨٩٥م) خامس حكام الأسرة العلوية بعدما ولي حكم مصر (١٨ يناير ١٨٦٣م - ٢٦يونيو ١٨٧٩م) أن يجعل مصر قطعة من أوروبا وعمل على تطوير مصر في كل الاتجاهات: التعليم والصحة والاقتصاد والسياسة والاجتماع والعلوم والعمارة. وكان مثله الأعلى في ذلك جده محمد علي باشا مما خلع عليه لقب المؤسس الثاني لمصر الحديثة.

لقد التقط جمال عبد الناصر بعد مائة سنة شعار الخديوي اسماعيل حين قال "علينا أن نحقق في ثلاثين عاماً ما حققته أوروبا في ثلاثمائة عام"؛ فدمر مصر في ثلاثين ساعة ودمر الشخصية المصرية تدميراً كاملاً في خمسة عشر عاماً.

لقد قام الخديوي إسماعيل باصلاحات شاملة: الاصلاح النيابي، الاصلاح الاداري، الاصلاح القضائي، الاصلاح العمراني، الاصلاح الاقتصادي، الاصلاح التعليمي الثقافي، ويهمنا هنا ما قام به من اصلاح في مجالات العلم والثقافة والعمارة.

تذكر المصادر الثقاة أن الخديوي اسماعيل قام بزيادة ميزانية التعليم وقام بالتوسع في انشاء المدارس وفي عهده بدأ التعليم الرسمي للبنات وكانت أولى مدارسه المدرسة السنية ١٨٧٣م وفي عهده أوقفت الاطيان للانفاق على التعليم، ووضع أول قانون أساسي للتعليم، وتحملت الدولة نفقات تعليم التلاميذ وفي عهده أنشئت دار العلوم لاعداد المعلمين وانشئت دار الكتب المصرية واسست الجمعية الجغرافية ودار الآثار (١٨٧٥م)

لقد أمر الخديوي إسماعيل ببناء عدة قصور لعل أهمها **قصر عابدين** ثاني أهم قصر في العالم من حيث الأبهة والفخامة والعظمة والاتساع، وذلك فور توليه الحكم جزاء من سعيه لجعل مصر قطعة من أوروبا في سنة ١٨٦٣م، وقد اتخذ القصر هذه التسمية من اسم عابدين بك أحد القادة العسكريين في زمن محمد علي باشا الكبير وكان يمتلك قصراً صغيراً في نفس المكان فاشتراه اسماعيل من أرملته وهدمه وضم إليه أراضٍ واسعة ثم شرع في بناء القصر العظيم الذي اتخذ اسمه من اسم عابدين بك كما اتخذ الحي نفس الاسم.

ويحتوي قصر عابدين على أجنحة وقاعات وصالونات تتميز بلون جدرانها، فثمة الصالون الأبيض والصالون الأخضر والصالون الأحمر، والتي تستخدم في استقبال الوفود الرسمية أثناء زيارتها لمصر بالإضافة إلى المكتبة العظيمة التي بدأت مع بداية القصر كما سنرى فيما بعد وقد بدأت بما يربو على خمسين ألف مجلد نمت مع الزمن. ويضم القصر أيضاً مسرحاً كبيراً يضم مئات المقاعد المذهبة. وثمة أماكن معزولة ذات ستائر خاصة بالسيدات ويستخدم المسرح في بعض الأحيان لعرض العروض المسرحية والرقصات الخاصة بزوار القصر على نحو ما قامت به نجوى فؤاد للمستر هنري كسنجر زمن السادات.

يضم القصر الكثير من الأجنحة للاقامة تعرف بأسماء مختلفة مثل الجناح الفرنسي الذي أقامت فيه الوفود الفرنسية أثناء افتتاح قناة السويس والجناح البلجيكي الذي سمي بذلك حيث كان ملك بلجيكا هو أول من أقام فيه. ويضم هذا الجناح سريراً يعتبر من التحف النادرة لما ينطوي عليه من زخارف ونقوش يدوية ورسومات من ابداع فنانين من طراز فريد.

ومن الملامح العامة في قصر عابدين ذلك المتحف الذي يضم آلاف التحف التي جمعت أو أهديت إلى حكام مصر منذ الخديوي اسماعيل وخلفائه ومن بينها قاعة الأسلحة التي تعتبر تاريخاً حافلاً للسلاح من مختلف أنحاء العالم. ويضم المتحف مقتنيات أسرة محمد علي عبر تاريخهم الممتد من ١٨٠٥ وحتى ١٩٥٢م، من أوان وأدوات من الفضة والذهب والكريستال والبللور الملون.

لقد غدا قصر عابدين مقراً للحكم منذ ١٨٧٢ وحتى ١٩٥٢ ومن ثم شهد أحداثاً سياسية وتاريخية كبرى وكتبت فيه حلقات تاريخ مصر المعاصرة وقامت حوله القاهرة الحديثة التي كانت ذات شوارع واسعة وميادين فسيحة وقصور ومبان رائعة وكباري على النيل وحدائق غنية بالاشجار والنخيل والنباتات والزهور بقي منها ما يشي بها كوبري قصر النيل، جاردن سيتي، حديقة الأورمان، حديقة الأندلس، حديقة الحيوان، الزمالك...

لقد دخلت إلى قصر عابدين عدة مرات أولاها في سن الطفولة عندما حضرت مع والدي حفل زفاف الملك فاروق على ناريمان تناولنا العشاء على احدى موائد الطعام وكان الملك والسيدة قرينته يطلان علينا من الشرفة ويبذران علينا الجنيهات الذهبية. وبعد قيام ثورة يولية ١٩٥٢ فتح قصر عابدين للجمهور العام كما اصبحت حدائقه حدائق عامة إلى أن جاء السادات وأعاد غلق القصر و الحدائق أمام الناس، وغدا قصراً جمهورياً واحد مقار الحكم وحيث كانت لدي السادات نزعة ملكية أرستقراطية. وكانت دار الوثائق قد احتلت جزءاً صغيراً من قصر عابدين، وقد بدأ تكوين مجموعة الوثائق بالقصر مع سنة ١٩٢٥م وظلت هناك حتى نهاية الستينيات من القرن العشرين حين نقلت إلى القلعة.

تذكر المصادر الثقاة أن المكتبة بدأت في الظهور مع افتتاح القصر مع سنة ١٨٦٥ قبل افتتاح دار الكتب الخديوية (١٨٧٠)؛ وقد بدأت بنحو خمسة وخمسين ألف مجلد جاءت من مظان مختلفة منها مطبوعات مطبعة بولاق والمطابع الأخرى الحكومية والأهلية. كما كانت المكتبة تتلقى الهدايا المطبوعة التي يقدمها رؤساء الدول والوفود الأجنبية للحكام المصريين، وفي نفس الوقت كانت المكتبة تتمتع بالإيداع غير الرسمي الذي تفرضه وزارة الداخلية من عهد الحاكم محمد سعيد طبقاً لقانون الرقابة على المطبوعات؛ كذلك دخل عنصر الشراء أسلوباً من أساليب بناء وتنمية مقتنيات هذه المكتبة الجليلة مما جعلها إحدى ثلاث مكتبات عظيمة الشأن جليلة القدر في مصر القرن التاسع عشر: مكتبة مطبعة بولاق، مكتبة قصر عابدين، دار الكتب الخديوية على الولاء. وقد ظلت مقتنيات المكتبة تنمو باطراد عبر حقبها المختلفة.

لقد تضمن تصميم قصر عابدين عدة قاعات للمكتبة، وهذا يعني أن وجود مكتبة في قصر عابدين كان أمراً مقصوداً في ذاته ولم يكن أمراً عارضاً، بل كان تقليدياً في القصور الملكية والامبراطورية في أوروبا احتذاه الخديوي اسماعيل في قصر عابدين. قاعات المكتبة تهبط إليها من داخل القصر بسلم رخامي الدرجات ناصعة البياض عرضها ثلاثة أمتار وعدتها عشرين درجة. وفي حدود وعيي البليوجرافي ضمت المكتبة مجموعة فذة من المخطوطات وأوائل المطبوعات ونوادر الكتب والخرائط والوثائق التاريخية الأصلية العربية والتركية والأجنبية والدوريات العامة والمتخصصة وكذلك البومات الصور.

كانت المكتبة في ظل الملكية منذ الخديوي اسماعيل وحتى الملك فاروق مفتوحة أمام الباحثين والدارسين ينهلون من ذخائرها. وكما ألمعت فتح قصر عابدين وحدائقه الغنّاء أمام الجمهور العام بعد ثورة ١٩٥٢ وحتى سنة ١٩٧٠ ولما ولى السادات نحو ما ذكرت أغلق القصر والحدائق أمام الناس ونقل الوثائق إلى القلعة. ولأن السادات كان رجلاً مثقفاً قارئاً مطلعاً اهتم بالمكتبة وعمل على تنمية مقتنياتها وأضاف

إليها في سنوات حكمه العشر آلاف القطع مما رفع حجم المجموعات إلى رقم غير مسبوق ربما ربا على ربع مليون قطعة.

وعندما ولي حسني مبارك أمر البلاد بعد اغتيال السادات، رفع شعاره المألوف "طهارة اليد والكفن الذي ليست له جيوب وفترة الولاية الواحدة" وأشهد أنه عمل به طيلة عقد كامل. ولكن مع سنة ١٩٩٠ عين السيد الدكتور فيما بعد زكريا عزمي رئيساً للديوان حيث النهب الثاني للقصور الملكية. لقد اتخذ زكريا عزمي وكان ضمن مهامه الاشراف على القصور الرئاسية (الملكية سابقاً) قراراً عجباً ليس له مسوغ أو مبرر، اتخذ قراراً باغلاق المكتبة ومنع الاطلاع على مقتنياتها وفرض عليها ستاراً من حديد لدرجة أن اللجان الرسمية التي شكلت آنذاك لجرد مقتنيات القصور الرئاسية الملكية وكان عدد أعضائها عشرين عضواً جاءوا من وزارات مختلفة منعت منعاً باتاً من الاقتراب من المكتبة ومثتنياتها أو الاطلاع حتى على سجلاتها.

وحتى اليوم وبعد مرور ست سنوات على ثورة الخامس والعشرين من يناير المجيدة ما تزال المكتبة موصدة بالأبواب مغلقة في وجه الباحثين والدارسين فما هي الأسباب التي حدث بالسيد الدكتور زكريا عزمي والذي يحاكم اليوم بالعديد من التهم وأرجو أن تضاف هذه الجريمة إلى جرائم فرم وثائق رئاسة الجهورية التي قام بها إبان ثورة يناير العظيمة. لم يعلن زكريا عزمي عن اي سبب ولكننا نعرض بعض التخمينات التي عساها تكمن خلف هذا القرار المخجل:

١. ان زكريا عزمي نهب جانباً كبيراً من مقتنيات هذه المكتبة لمصلحته الشخصية وحيث كان يعد أطروحته لدرجة الدكتوراه تحت اشراف كل من أ.د.مفيد شهاب وأ.د. رمزي الشاعر.

٢. أن هذه المكتبة بما تضمه من ذخائر ونوادر وخاصة الألبومات ذات الآلاف المؤلفة من الصور لو اطلع عليها الباحثون الدارسون ودرسوها دراسة متأنية واعية لتغير وجه التاريخ وخرجت أسرة محمد علي وخاصة الملك فاروق أبطالاً وطنيين من الطراز الأول، بينما الآخرون خونة ومهرجين وخاصة فيما يتعلق بحرب فلسطين.

٣. أن السيد رئيس الجمهورية محمد حسني مبارك وكان يكره الكتب والمكتبات ولم يقرأ في حياته كتاباً واحداً خارج الكتب المقررة -إن كان قد قرأها أصلاً- قد الهم زكريا عزمي إغلاق المكتبة حتى لا يتردد عليها الباحثون والدارسون طلباً للحقائق والمصادر الأصلية للتاريخ المعاصر.

٤. أن إغلاق مكتبات القصور الملكية الأخرى مثل قصر رأس التين بالاسكندرية بشي يقيناً باتجاه عام إزاء المكتبات الملكية لطمس معالم التاريخ الملكي المعاصر لمصر وطمس معالم حقبة حضارية ثقافية من أهم حقب مصر الحديثة.

ولئن كانت مكتبة الملك فاروق الشخصية قد تم تمزيقها إلى ثلاث قطع متساوية وبعثرت بين قنا وسوهاج وأسيوط. ولئن تم تمزيق مكتبة البرنس يوسف كمال إلى أربع قطع غير متساوية بين وزارة الزراعة -معهد علوم الصحراء، وجامعة القاهرة وجامعة عين شمس وجامعة الاسكندرية (قطعة وزارة الزراعة في المكتبة القومية الزراعية المصرية قدمت هدية إلى المجمع العلمي لتعويض المكتبة التي أحرقت إبان ثورة يناير ٢٠١١). لئن كان هذا وذاك فقد كان إغلاق مكتبة قصر عابدين هو نفس المصير المؤسف.

لقد بُحّ صوتنا للحفاظ على مكتبتنا العريقة حيث كان المكتبة قيمة مصرية قديمة؛ وكما تقول الصين الأمم العظيمة والمكتبات العظيمة تسيران جنباً إلى جنب، ولكن ليس ثمة من يسمع أو يرى أو يستجيب.

يرحم الله الخديوي إسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي وطيب ثراه ففي الأعوام الستة عشر التي حكم فيها مصر، جعل مصر قطعة من أوروبا حقاً وصدقاً (١٨٧٣-١٨٧٩م) حيث اهتم اهتماماً بالغاً بالتعليم والكتب والمكتبات، وافتتح قناة السويس ومد خطوط السكك الحديدية وشق ترعة الاسماعيلية وترعة الابراهيمية ووسع رقعة الأراضي الزراعية وشيد الكباري وقوّى الجيش وبنى القصور وجعل في كل قصر مكتبة على غرار احدث الطرز المعمارية الأوروبية، وقد نفث هذه الروح في أبنائه فقامت فاطمة اسماعيل ببناء كلية الآداب جامعة القاهرة وغير ذلك كثير.

أرجو ممن يهمه الأمر أن يعي رسالتي هذه، وسوف تقدره الأجيال القادمة بدلاً من أن تلعنه...

رئيس التحرير

أ.د. شعبان عبد العزيز خليفة

الرئيس الفخري للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات (أفلي)